

رشيد الخيُون

كان الداعي لكتابة هذه المادة هو ما كتبه الأديب إبراهيم أحمد، في العدد (٣٣١) من «المؤتمر» تحت عنوان «المعزول لا يستطيع أن يؤثر في حياة غاب عنها طويلاً، وبالتحديد عبراته: «سيظهر أبطال كثيرون من أمثال ابن العلقمي، ولكن سيكون هناك أيضا ساسة وقادة وطنيون محطسون وشرفاء»، وليس لي تحميل اديبنا إشارته السلبية إلى الوزير المثقف مؤيد الدين أحمد بن محمد المعروف بابن العلقمي، فالخطيئة المزعومة وردت في أذهان التاريخ، وليست مهمته البحث بما هو خارج همها. سأحاول في هذه الكلمة الكشف عن ملامسات ما اتهم فيه الوزير ابن العلقمي بأطلا على ما اعتقد، وكنت قد طرقت الموضوع بتوسع في كتاب «الأديان والمذاهب بالعراق» (دار الجمل، ٢٠٠٣، الفصل الخامس)، وأشارت له بتفاصيل أقل في كتاب «معتزلة البصرة وبغداد» (دار الحكمة ١٩٩٩، الطبعة الثانية، في سياق حياة شارح نهج البلاغة المعتزلي الأصول والشافعي الفروع والعلوي العاطفة عز الدين ابن أبي الحديد).

وقبل ذلك، أود الإشارة السريعة إلى مختلقات التاريخ، التي ليست ثياب الحقائق لكثرة تكرارها، واستخدامها في الخلاف الديني والمذهبي، وخطيئة الوزير ابن العلقمي واحدة منها، وهي آخر أخبار الخلافة العباسية ببغداد، ومن هذه المختلقات أن يتتلى أبو رغال في إدلاء جيش أبرهة الحبشي بينما يسلم من الخطيئة الأبدية أمير الطائف الذي كلفه بهذه المهمة، وأن تسب كل خلافات المسلمين بداية من قتل الخليفة عثمان بن عفان إلى ظهور الطوائف الإسلامية وحروبهم فيما بينهم إلى شخص ليس له وجود في الأسباب والتاريخ، فلا وجود لعبد الله بن سبا على وجه البسيطة، وأن يحرق طارق بن زياد سفنه على ساحل العدو، وهي كل عدته العسكرية، ولا أظن أن جاهلاً يفعلها، وغير هذا كثير.

ما تجاهله المؤرخون

يوم دخلت قبيلة السلاجقة الثمانية كان قاضي القضاة والفقيه الشافعي أبو الحسن الماوردي (ت ٥١٥هـ) سانسبا، وأقول سانسبا لأنه كان الوسيط بين الخليفة وآل سلجوق، غافلاً الود الذي خصه به البويهيون، فكان في محل تكريم وتقدير في بلاطهم، لكن لا أحد يذكره بالخطيئة والخيانة. ويوم دخل البويهيون بغداد بخيولهم الديلمية لا بد أن نسقوا وهياؤا. قبل اجتياح بغداد، لفصل السلطة الدينية عن السلطة العبادية، والإنفراد بالأخيرة، وليس هناك منهم في الأمر؟ وعندما نسق بعض الفقهاء، ومنهم قاضي القضاة شمس الدين القزويني مع المغول نكابة بالإسماعيليين لم يخبر مؤرخ عن هذا الأمر إلا بحدود عذرهم في التصدي (للملاحدة)، ويعنون الإسماعيليين. ولا ندري لماذا كان يفعل قاضي القضاة القزويني في بلاط المغول غير الاستعانة بهم ضد فلاح الإسماعيليين، ولنقرأ ذلك عند مؤرخ معاصر للحدث، قال رشيد الدين الفهماني (ت٥١٨هـ) في «جامع التواريخ» وهو تاريخ المغول الذي كتب باهتمام من السلطان غازان ابن حفيد هولاكو: «كان قاضي القضاة المرجوم شمس الدين القزويني موجوداً في بلاط الخان، وذات يوم ظهر للخان مرتدياً الردء (زرر على غراز وافي الرصاص واليوم)، وأخبر أنه يدبر تحت ثيابه خنيفة الملاحدة، كما سرد له طرفاً من اعتدائهم وغاراتهم». ونقل أكثر من مؤرخ ما كان على هذه الكيبر وقاضي القضاة لاستخدام المغول، لأن الخلافة العباسية عجزت عن دحرهم.

كم من الهلاد المسلمة، التي عجت بالفقهاء والمفتين، مرت بها جيش هولاكو قبل الوصول إلى أسوار بغداد، وهو ظهر مدافع عن الخلافة والإسلام وتصدى لها بشكل من الأشكال، ماعدا شيخ الإسلام ابن تيمية الحنبلي عند تجمع كل التواريخ التي شيعت لخطيئة ابن العلقمي على رواية واحدة اقتبسها من أبي الفداء: «كان سبب سقوط الخلافة «أن وزير الخليفة مؤيد الدين ابن العلقمي كان رضيعاً (الرجل) من أهل الكرخ أيضاً روافض، فجرت فتنة بينه وبين الوزير الفقيه الشافعي ببغداد على جاري أهدتهم، قام أبو بكر بن الخليفة وركن الدين الودادار (قائد الجيش) المسكر فتهبوا الكرخ، وهتكوا النساء، وربكوا منهن الفواحش، فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمي وكتب التار واطمعهم ملك بغداد (المختصر في تاريخ البشر). ولم يمتنع ابن خلدون من تصديق هذه الرواية وغيرها من المختلقات، مع ما أخذه على نفسه في مقدمة تاريخه من تخلص التاريخ المكتوب من الأباطيل والأكاذيب. ولم يتأخر ابن خيري في «النجوم الزاهرة» من إضافة نيز التفتي إلى اسم ابن العلقمي، والوزير، الذي اضمر أمراً لتأز مما حدث للشيعة بالكرخ واستقدم هولاكو، ابن خلدون هولاكو يقتله بعد الاجتياح. وقال

فصول الثقافة

دفاعاً عن مؤيد الدين ابن العلقمي

سقطت بغداد بيد المغول لسوء إدارتها والتنسيق المسبق ضد الاسماعيليين

وأن القائد الأعلى ليس عسكرياً، وعلي كيميائي سابق حماد شهاب، وزير للدفاع، وحسين كامل حارس خير الله لطفاح، وزير للتصنيع الحربي، ويافع الشلج، عزة الدوري. عند حائط صحن الإمام أبي حنيفة، فريق في الجيش العراقي ونائب القائد العام وقس على هذا. كان الوزير، الذي نافذ مكتبته على العشرة آلاف كتاب، حكيماً في مشورته، فقد وضع أمام الخليفة ما تعامل به أجداده مع البويهيين والسلاجقة، إنها القوة العاتية والغفوان ولا مرد له بقيادة الخصيان، فلا بد من الاستجابة والتفاوض سلامة دار الخلافة، وكان هذا ممكناً، لو لم يؤخذ بحماقة حاشية الخليفة وولده، لا أعلم متى بدأ الخلفاء العباسيون يحجبون أولادهم عن الناس وعن دوائر الدولة، تجنباً لتدخلهم بشؤون الناس وحفظاً لهم من التأثر بالعوام، لكن الثابت أن المستعصم هو أول من أطلق العنان لأولاده في التدخل بشؤون الدولة، وكان التنسيق